من ميـــدان الحياة

للأستاذ شكرى فيصل

هذه الأمانى التى تعتادنى اليوم ... ما بالها تزدهر فى خاطرى من جديد ، وكنت أحسب أنها الفرقة التى لا رجعة وراءها ، والهجر الذى لا لقاء بعده ، والأسباب التى انقطعت فلا سبيل إلى صلتها ؟ وما أنا وهذه الأمانى التى تتفتح فى أعماق من جديد مع الورد الناشئ ، وتنطلق فى عالى مع الربيع الطلق ، وتتألق فى دنياى مع الزهر النيّر ، وكنت حسبتنى انصرفت من دنياى الكبرى لأعيش فى دنيا الناس الضيقة ، وخرجت من عالى الفسيح لأتى هذا العالم المتقارب ، وهجرت الأرض الخصبة لبدى كفاى وقدماى بالفأس القاسية والأرض الغليظة

... وما رجعنى إلى رؤاى هذه ؟ ! ... كانت لى معها ليال أزهى من النور وأوضح من الصبح ... وأيام أنضر من الورد وأحلى من الربيع ... لكأنى أذكر الساعة أوديتها الخضر العامرة ، وجنباتها الغر الزاهرة ... وهذه الفضة فيها كالحصى ... وهذا الصليل كالأمواه ... وهذا الذهب المنتشر كأنه أوراق زهر الدراق ... وذلك الزمرد الذى يطرز حواشيها كأنه أعشاب الجنة ... لكأنى أثب معها الساعة فى تطواف بعيد ، لا أحس له الجهد ، ولا ألقى فيه العناء ، ولا أكاد أمس الأرض إلا المسّ الهين الرقيق .. فأجوز السهل والجبل ، وأمر بالهضبة والوادى ، وأطوى البيد الفساح ، ويحملنى النهر على سرير ناعم من نسماته اللطاف ، ويصوغ لى البحر فلكا طيّعة من أمواجه الخفاف ، وينشر لى الأفق بساطه السجدى ... أكان الجبل إلا السبيل المذلل المنقاد .. أكانت الصحارى إلا المسالك المذهبة المبسوطة ؟ أكان العالم إلا جنة من السحر الحلال ؟ !

تلك ليال وأيام ... ما أمرّها ، تطرقنى مبكرة ، وتسعى إلى هذا السعى الهادئ مع مولد الفجر ... تنشر لعينى الصور ، وتلقى فى أذنى الأحاديث ، وتفجّر فى قلبى الأصم ينابيع متدفقة من الذكريات ... أتراها تريد أن تفسد علىّ حياتى بالنعيم ، وتثير منى عاطفتى بالذكرى ، وتنال من بعضى ببعضى ... أتراها تودّ أن تطفئ ظلماتى السود بمشاعلها المتقدة ، وتخفت أنفاسى الخرس بأغانيها العذبة ، وتطمس أنفاسى الباردة بأنفاسها المشتعلة ؟

* * *

... وما أنا وهذه المواكب التى تتهادى من أمامى ، وهذه الحسناء التى تنظر إلىّ ... لكأنى عشت معها دهراً طويلاً ... أذكر ... لقد كان بينى وبينها عهود ! وكان لها فى عنقى ذمم ، وكان لى فى رقبتها وجائب ... ثم ... ألم تكن من بيننا فرقة ، فتتاركنا على غير شىء ... كأنما لم ترع طفولتى بالهدهدة الناعمة ، ولم ترف على فتوتى ظلالها الهادئة ، ولم تسكب فى قلبى خمرها المسكرة ... وكأن لم يكن بين دمشق والقاهرة أنيس ، ولم يسمر فى مرابع الجيزة سامر ، ولم تهتف فى دمشق هواتف ، ولم تثر فى الغوطة أصداء ... فما بالها اليوم : هذه المواكب توحش صمتى الساذر بالنشيد ، وتفزع أمنى القلق بالسلام ، وتعشى عينى المظلمتين بالجمال ، وتفسد على مقامى الخشن بالموكب اللاهى ؟ ! ... أتراها تبتليني من جديد بسحرها العابث ؟ ! تلك مواكب وأغانٍ وأناشيد قد خلت ... فما مثارها عندى اليوم ، وما لى من موكب وأغنية ونشيد ... ؟

وهذه الذكريات التى تغزونى فتلح علىّ وتأخذنى من بين يدى وخلفى ... ما أنا وهى وقد استرقنى حاضرى ، فإذا هو علىّ مطبق لا ينفرج ، ورتق لا ينكشف ، ضيق لا يكاد يتسع لغير هذا الذى أنا فيه ؟ وما أنا فيه إلا الآلة الصماء تغدو مطلع النهار مع الصباح لتعود فى صفرة اليوم مع المساء ، وتظل على ذلك تحرك فى غير حراك ، وتدور على غير حس ، وتمضى وكأنما تدفعها يد قادرة إلى غير ما أحبت وما كانت تقدر أنها تحب ... ما أنا وهذه الذكريات ، تجد السبيل إلى كهفى العميق ، ثم تتحسسنى من بين هؤلاء الساكنين الذين قدر لهم أن يعيشوا معى فى هذا الكهف . كيف استطاعت أن تجوز هذه الأبواب الحديدية الضخمة ، وأن تفلت من هؤلاء المردة الذين يحرسونها ، وأن تبلغنى فتمزق هذا الغشاء الضفيق الذى أسدلت بينى وبينها ؟ ! ما شأنها ، تملأ على جنبات هذا الكهف ، فى يديها البضتين هذه الأعواد الرقيقة المشتعلة ينتشر منها هذا الدخان اللطيف العطر الذى ينفث فىّ روح الماضى . لكأنه هذا البخور الذى